مسرح عمالنا في الغربة :

مسرح الاصالة والثورة

لكي يكون المسرح اصيلا يجب ان يحكي الواقع . والواقع لا يعرفه جيدا سوى ذاك الذي يتصارع واياه كل يوم : الكادح ، فلاحا كان ام عاملا . انه يلتقط الواقع من خلال نظرة طبقية معينة وهذا ما يجعله قادرا على التقاط عدد غير محدود من الرموز فيه .

من هنا يأتي ان مسرح العمال (الذي هو ضرب من المسرح لا نعرفه مع الاسف في المشرق) هو مسرح ذو اصالة لا تعرفها باقي المسارح ، كونه يلتمس الواقع على مختلف وجهاته ومستوياته .

لو اعطي لفرقة مسرحية ، اعضاؤها من الطلاب مثلا ، ان تصف الهجرة لتكلمت عن تأثيراتها الاجتماعية وربما السياسية . لو اعطي لفرقة تجارية ان تصف الهجرة للخصت الحديث كله في سكيتش مضحك او اغنية . ولكن عندما يتكلم العمال المهاجرون انفسهم عن الهجرة فانما يلتقطون واقعها من خلال حياتهم اليومية (طريقة معاملتهم) فينتقلون منها الى مكونات هذه الحياة (ويكتشفون عندئذ خلفياتها الاقتصادية والدينية والاجتماعية) ثم يبدأون بتحليلها (وهنا ترد الاسئلة : كيف ولماذا والام ؟) فتأتي الصورة التي يخرجون بها نقدية تظهر الهجرة على حقيقتها : اي واقعا سياسيا مصطنعا ، شاذا ، يمكن بعد تحليله اعادة بنائه من جديد .

ولكي يتحقق ذلك يجب ان تكون ارادة التجديد قوية . ان تكون ثورية .

هناك فرقة مسرحية عمالية عربية في فرنسا تدعى « العاصفة » ذات ارادة حديدية تمارس المسرح الملتزم منذ عام ١٩٧٣ (وقد اتينا على ذكرها في مقال عن المهرجان الاول لمسرح العمال المهاجرين في فرنسا ، في احد اعداد الهدف) . هذه الفرقة المسرحية يمكن ان نتخذها مثالا لما سوف ننطلق به مع مشروع مسرح الخلية الذي يتم اعداده حاليا . اتانا الغرب بضروب بورجوازية من المسرح ، وكتم لنا الضرب الملتزم منه الا وهو مسرح العمال . آن لنا ان نكتشف هذا النوع من المسرح وان نتخذه اداة لنضالنا الثوري .

في الحقيقة ، المسرح نشاط سهل اذا اطلعت على مقوماته ، لا يتطلب سوى وجود بضعة اشخاص وبعض الالبسة والديكور . ففرقة العاصفة مثلا المكونة من عشر اشخاص لعبت مسرحيتها الاولى (اخدم اخدم وبلع فمك) بديكور والبسة لم تكلفها اكثر من خمسين ليرة لبنانية . لم يكن المشاهدون يبالون بالالبسة التي كان يرتديها الممثلون بل كانوا يصغون باهتمام الى الاشياء التي كانت تسرد لهم ، وتمثل امام اعينهم ، اذ هدف المسرح الاول (والاخير) المشهد الذي ينطبع في عين المشاهد والكلمة التي تقع في اذنه .

مؤخرا ابتكرت فرقة العاصفة مسرحية عنوانها الغزالة

تحكي واقع العمال العرب في بلادهم وفي الغربة . قام اعضاء الفرقة بابتكار جماعي حول موضوع الغربة ، فاتى كل منهم بمشهد او صورة او فكرة نظمت ونسقت على شكل مسرحية . واتى عنوان المسرحية من حادثة رواها عامل تونسي من اعضاء الفرقة وقعت فعلا في بلاده سنأتي على ذكرها بعد قليل .

تبدأ المسرحية بمشهد نرى فيه عمالا يخاطبون الجمهور . يقول احدهم :

ـ اخواني ، من شق الطرقات التي تسير عليها سياراتكم ؟ من بنى المنازل التي تسكنون فيها ؟

(يجاوبه الممثلون الاخرون) :

ـ نحن العمال
نحن المهاجرين
نحن الرجال
نحن عبيد القرن العشرين .

ـ اخواني ، من ينظف لكم شوارعكم كل يوم.. والخ .

يظهر في المشهد الثاني رب عمل فرنسي وزوجته ، يشكو الاول فيه على الهاتف حادثة « صغيرة » وقعت في ورشته حيث زلق احد العمال من اعلى البناء وهو يعمل بامر منه . يقول لزوجته: « بدلا من ان يساعدوا رفيقهم ماذا فعلوا برأيك ؟.. انهم اقتحموا باب مكتبي وهم يهتفون : نريد ضمانات . نريد تطبيق اساليب الحماية ، وغيرها من الاشياء التافهة . فاتصلت على الفور بصديقنا رئيس المخفر واثبتنا الهدوء والحمد لله ! » فيكون جواب زوجته : « حقا وقحون هؤلاء العمال . انهم يتكاثرون لدرجة اننا سنصبح يوما نحن غرباء في بلادنا ! »

مشهد طريف يعطي المشاهد صورة واضحة عن نظرة الفرنسيين للعمال المهاجرين .

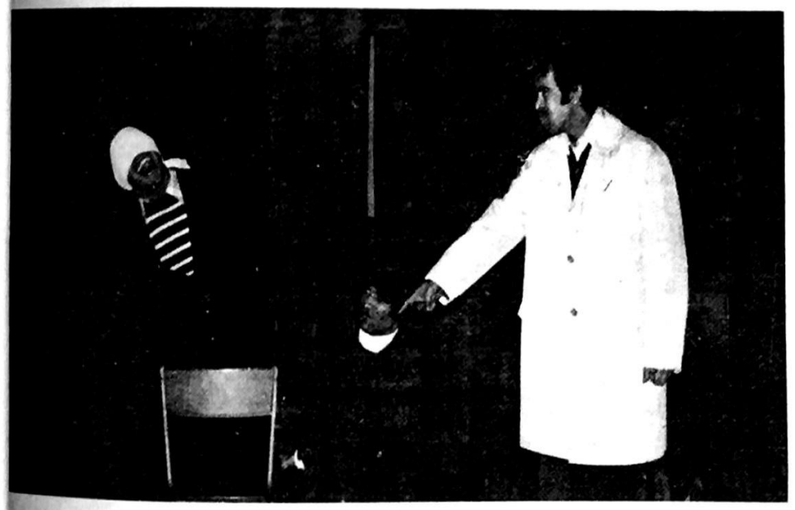

ورب مشهد موفق ذاك الذي يروي حادثة الغزالة التي سببت هجرة العامل التونسي الى فرنسا . يرويها الممثل بالشكل التالي : يدخل فجأة القهوة حيث يجتمع اصحابه يلعبون بالورق ، يخاطبهم ثم يخاطب الجمهور فيقول : « الباسبور ! الباسبور !... حصلت على الباسبور ... سأروي لكم كيف حصلت عليه . سأتكلم من الان وصاعدا بالفرنسية . انا ذاهب الى فرنسا !!! انا احمد بن قاسم وابي فلاح . لكن عندما كنت في المدرسة كان ابن القائد (اي حاكم المدينة) صاحبا لي . هو ابن القائد وانا ابن الفلاح . بد مدة سلبوا ارضي والدي فطردوني من المدرسة . ولكن ابن القائد كان يتابع دروسه . كنت امضي وقتي بين المنزل والقهوة ، بين القهوة والمنزل دون ان اجد عملا . اخيرا طردني والدي من المنزل . لي ابناء عم يعملون في مصانع سيتروان في فرنسا . فقلت لنفسي ان علي ان اسافر لاعمل معهم . وهنا اتتني فرصة العمر ! التقيت ذات يوم بابن القائد فقال لي : والدي يريد مقابلتك وعنده سواح امريكيون . فذهبت الى قصر القائد وهناك استقبلوني بحفاوة وسقوني الكوكاكولا.

وعندها قال لي القائد : روى لي ابني انك شاب شجاع واريد الحصول على غزالة . اذا جلبتها لي سامنحك الباسبور الذي يسمح لك بمغادرة البلاد والا فلا . لك مهلة ١٥ يوم . الى اللقاء .

ذهبت الى دواري . جمعت بعض افراد عائلتي وذهبنا ليلا الى صيد الغزال فتمكنا من القاء القبض على غزالة حية . وعدت بها الى القائد . والان لدي الباسبور !!! ساعمل واتزوج وابني بيتا . سأذهب الى فرنسا واترك القهوة ولعب الورق . يقولون ان المال في فرنسا مكدس اكياسا اكياسا . ساعود ببعض منها . وداعا يا فقر ! وداعا يا بطالة ! وداعا يا هالبلاد ! »

وهنا تبدأ حياته في الغربة ، فالوزير المغربي ينصحه ويرشده فيقول له انه سفير بلاده في فرنسا من الان وصاعدا ، وان عليه ان يتجنب السياسة والاحزاب والنقابات . « اعملوا سنة وعودوا الى البلاد . اعملوا خمس سنوات وعودوا الى البلاد . اعملوا عشرين سنة وعودوا الى البلاد . واذا لم يصح لكم ذلك فموتوا هناك ، فكثيرون هم الذين ينتظرون بلهفة ساعة الذهاب الى فرنسا » .

اما الوزير الفرنسي الذي يستقبلهم في مرفأ مرسيليا فيتفحصهم واحدا واحدا (العضلات والاسنان ـ وذلك ما يحدث حقا) ثم يوزعهم على المصانع والبناء والتنظيفات وآبار الفحم والزراعة الخ .

يتطرق مشهد اخر الى التربية التي يتلقاها العمال في فرنسا . فهناك مدارس للدولة يمولها ارباب المصانع لتعليم اللغة الفرنسية للعمال . مالنا يعلمون فيها ؟ « محمد يعمل . على ينتقل بالميترو . محمد يعمل بسرعة . كلما زاد انتاجه زاد معاشه . عملت في المصانع وما ربحت ولا كدست مالا
ها قد مرت عشرات سنوات
وخمس عشرة سنة ما زالت امامي !
تعبت من الغربة ومليت . كفاني !...

مشهد آخر يرينا قطيعا من السواح الغربيين يغنون : « في بلاد المغرب الطبيعة ما زالت طبيعية». يقف احد الممثلين فيقول : سنروي لكم الآن قصة « مغرب » لا تعرفونها . ويبدأ بتعداد المدن السياحية وما يجري فيها من بطش سياسي على الصعيد المحلي فيقول : الرباط ـ مراكز للسجن غفيرة ودور للتعذيب ، كازابلانكا ـ مستودعات لليد العاملة وسجون تحت الارض ، الخ . ثم يتابع : لا تنسوا ايها الناس ما يردده الملك حسن وموظفوه في الصحف : « ان الطقس المالكي يسمح ان نفني ثلثي سكان الوطن كي يبقى الثلث الباقي حيا » وفسروه على ضوء هذه الاشياء !

في مشهد آخر يعود اهل عامل قد لاقى حتفه في المهجر في حادث عمل وهم يحملون جثته على الاكف بينما تبكي النساء . ينصرفون فينهض الميت ويخاطب الجمهور فيقول : « انا واحد من بين الالوف الذين يعودون سنويا هكذا الى البلاد ، ولكن هذه الطريقة ليست الطريقة الوحيدة التي سيسلكها الباقون للعودة الى البلاد » .

اجمل المشاهد واقواها المشهد الاخير ، حيث نرى اعادة لدرس في مدرسة لتعليم الفرنسية للعمال المهاجرين يردد فيه الاستاذ الفرنسي للعمال : « محمد يعمل باخلاص . انه ينظر القطار يمر . محمد يحب رب عمله . محمد يحب فرنسا . محمد رجل سعيد » . هنا ينهض جميع العمال غاضبين ويتقدمون من الاستاذ وهم يصرخون : « لتتحطم العبودية ! كلنا عمال ! » . وتسمع من الناحية الثانية من المسرح صوت تظاهرة يهتف رجالها ونساؤها بالعربية : « الخبز والحرية للشعب ! » .

وهم يتقدمون غاضبين من الوزير المغربي . ويلتقي الاستاذ الفرنسي والوزير المغربي ظهرا الى ظهر في منتصف المسرح يحيط بهم من اليمين العمال المهاجرون ، ومن اليسار فقراء وفلاحو المغرب ، فينهالون عليهما ضربا وسحقونهما سويا .

هنا المشهد لا يحتاج الى تعليق . انه ملخص المسرحية : العدو عدوان ، البورجوازي في الغربة والبورجوازي في الوطن .

تنتهي المسرحية بنشيد العمال يغنيه امام الجمهور جميع اعضاء الفرقة . ولكن المسرحية لن تنتهي ، لانها كالنضال لا نهاية لها ، وقد انتقلت من خشبة المسرح الى واقع المشاهدين . وهنا تبدأ حياتها الحقيقية .

فريدريك معتوق